

الخطوط العامة للبيئة الفكرية



﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمُّتُكُمْ أُمَّةٌ لَا رَبَّ لَهُمْ وَأَرَى رَبَّكُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون/ 52).

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (المؤمنون/ 101).

من الإهتمامات الإنسانية التي عالجها القرآن الكريم، وأولاًها الإسلام عنابة فائقة، هو موضوع البيئة الفكرية.

ولعل القارئ يستغرب للوهلة الأولى من هذا الاصطلاح الذي لم يحظ بالعناية من الدارسين والمهتمين بالشؤون الفكرية للأمة الإسلامية في العقود الأخيرة من هذا القرن إلا القليل..

وسوف لن تكون قادرین على إيجاد تلك الأرضية، وضمنها، ما لم نوجد البيئة الفكرية الصالحة، ونحرص على إتساعها ونموّها وسلامتها عن الأمراض والعواصف التي تزعزع معالمها:

وإذا استعرضنا مختلف الآيات القرآنية المباركة في مختلف السور الكريمة، ولا سيما تلك الآيات التي تهتم بالجانب السلوكي للفرد، والتي تهتم كذلك بجانب العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والشعوب والأمم، وكذلك الآيات التي تحدد علاقة هذا المخلوق البشري بعالم المخلوقات الكوني الكبير بما فيه من أجرام وأفلاك وجبال وغابات وأنهار وبحار ومشاهد طبيعية مختلفة وحيوانات، ثم تعرج هذه الآيات لتبیان العلاقة بخالق هذه الأشياء والمعالم جميعها، ثم تستطرد بعد ذلك لتبيان النهاية التي يقطعها هذا المخلوق البشري عبر رحلته الدنيوية، ومصير هذه الرحلة والمآل الذي يؤول إليه في المرحلة اللاحقة.

هذه الصور جميعها التي توضحها الآيات القرآنية أو التي تشير إليها إشارات واضحة أحياناً، وتلميحية أحياناً أخرى، إنما هي تشكل المساهمات الفدّة في إيجاد معاالم الأفكار السليمة والرؤى

الواضحة لما يكتنف الحياة التي يحياها الإنسان، وتنامي هذه الأفكار والرؤى والتصورات إنما يكون في مساحة محدودة هي مساحة النفس والذهن، وهذه بدورها وبطبيعتها المترددة (أي الرؤى والأفكار) تشكل مناخاً خاصاً ومتميزةً في الذهن والنفس، ينعكس على سلوك الأفراد والجماعات والشعوب والأمم على مستوى علاقتهم ونشاطهم وإبداعهم. فالتفكير نشاط إيجابي فعال للنفس كما يقول الشهيد المفكر العذر[1].

فإذا كانت البيئة تعني مجموعة العوامل والظروف التي تحدد معالم الحياة في صفتها العامة، وإذا كانت هناك بيئات متباينة ومختلفة كلّ يختصر بلون من ألوان هذا الوجود المترامي الأطراف كما كشفت لنا البحوث العلمية، فإنّ الأفكار باعتبارها نشاطات فعالة ذات علاقة مباشرة بعالم النفس وذات تأثيرات مباشرة على مسيرة الإنسان، وبما أنّ لهذه الأفكار كذلك مناخات وأجواء وأساليب وطرق خاصة في تلقيها وبنائها ووضوحها واستيعابها، فإنّ هذه جميعاً تشكل العوامل التي تساهم في رسم المعالم الجديدة والمستقبلية للحياة الفكرية للإنسان والتي نصلح عليها من الآن بالبيئة الفكرية.

ومن هنا نفهم من جديد أنّ تلك الآيات المباركة الكثيرة التي تتحدث عن عالم الغيب، والتي تتحدث عن علاقة الإنسان بالله، وتنظم علاقته بالآخرين، وتخطّ له سيراً مستقيماً، وتبين له فهماً واعياً، إنما جميعها تحرص على رسم معالم البيئة الفكرية الصالحة التي تنموا فيها المشاعر الخيرة، والأفكار النيرة، والعلوم النافعة، والفهم الإنساني. يقول الرسول الكريم (ص): "العلم امام العقل"[2].

وإذا أردنا أن نتلمّس هذا الجانب من الطرح القرآني المبارك، والذي يرسم معالم البيئة الفكرية للإنسان المسلم، لابدّ لنا من أن نستعرض الآيات المباركة في قراءة واعية تستهدي باللطف الرباني وهو يرسم معالم الطريق ويوضح الرؤى الغامضة ويميط اللثام عن الحقيقة التي ارتسمت معالّمها في جنبات هذا الكون الفسيح. وسنوجز الحديث حول بعض الآيات، وليس كلّ الآيات التي ترسم معالم البيئة الفكرية للإنسان المؤمن:

أ- من الآيات التي ترسم معالم العلاقة بالله في مستواها الكوني العام والإنساني الخاص:

1- (وَهُوَ الرَّبُّ يَعْلَمُ يُحْيِي وَيُمْبَتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ الْأَيَّامُ وَالذَّهَارَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (المؤمنون/ 80).

2- (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنِ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (المؤمنون/ 84).

هذا الشّدّ النفسي والذهني من خلال استعراض الطواهر الفسلجية والتي تتكرر أحدا ثهما في حياة الإنسان، ثمّ الاستعراض الهدئ الذي يحرك كواطن النفس والخاطر لمشاهد كونية شديدة الصلة بحياة الإنسان، هي من المساهمات والبرامج الهدافية التي تحرص الآيات القرآنية على طرحها حتى تساهم في صياغة الأفكار والمفاهيم التي تصل إلى المضمون الذي تبحث عنه الآيات الكريمة في شخصية الإنسان، وتحرص على أن يكون هو المضمون المطلوب وذلك هو ظاهرة التعقل في إدراك الأشياء، واستيعاب مفرداتها المبثوثة في هذا العالم الكوني الواسع.

إنّ الطرح القرآني بهذه الصورة، يثير الانتباه لدى السامع، و يجعله يطمح إلى مشاهدة المزيد من الطواهر الكونية، أو إعادة التفكير بها ملياً، والخطوة الأولى في عالم حركة الذهن البشري هي ظاهرة الاستطلاع والتأمل... هي النتيجة التي تريدها الآيات القرآنية.

وطاهرة الاستطلاع والتأمل، من العمليات الذهنية والنفسية التي تساهم هي الأخرى في إيجاد خطوط ومعالم جديدة للبيئة الفكرية والتي ستقام عليها سلسلة من التصورات والمفاهيم:

اننا بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى لأن ننطلق من هذه القاعدة وهي:

1- ظاهرة الاستطلاع والتأمل:

وقد تسمى أحياناً بقوة الملاحظة كما هو المتبّع في منهج المدارس الأوروبية الحديثة في تعليم الناشئة.

إنَّ قوَّةَ الْمُلْحَظَةِ إِذَا حَلَّلَنَا مَفَرَّدَاتِهَا سَنَجِدُهَا تَتَكَوَّنُ مِنْ:

- 1- استطلاع.

- 2- تأمل.

وهي عملية يستطيع الإنسان ممارستها في كل لحظة من حياته وفي مختلف الحالات التي يعيشها.. ماشياً .. جالساً .. متخدناً .. ساماً ..

وللتأمل والاستطلاع، ميادين ومناخات وأساليب ووسائل ولهمما غاية:

هكذا يجب أن يكون في المدرسة الإسلامية، لا أن يكون سائباً منفلتاً، فليست كل الطواهر والحركات والصور بحاجة إلى توجيه الجهود الفكرية نحوها ...

إنَّ فِي الْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ طَوَاهِرٌ وَأَشْيَاءٌ اسْتَجَدَتْ لَا تَخْدِمُ ظَاهِرَةَ التَّأْمَلِ وَالاستطلاعِ، وَلَا تَقْوِدُهَا لِلنْتِيجَةِ الْمُطْلُوبَةِ، فَهُنَاكَ فَرَقٌ بَيْنَ مَنْ يَطْلُعُ عَلَى مَا يَسْمَى بِرَقْمِ الْبَالِيَّةِ وَيَتَابِعُ مَفَرَّدَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَهُنَاكَ فَرَقٌ ذَهْنِيٌّ وَنَفْسِيٌّ بَيْنَ مَنْ يَطْلُعُ عَلَى مَفَرَّدَاتِ صَنَاعَةِ الْحَاسِبَةِ الْإِلْكْتَرُونِيَّةِ، أَوْ يَتَأْمَلُ الْحَيَوانَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي حَدِيقَةِ الْحَيَوانَاتِ، أَوْ يَشَاهِدُ الشَّمْسَ وَهِيَ تَشْرُقُ فِي سَاعَاتِهَا الْأُولَى.

فالتأمل والاستطلاع ضمن الموازين التي طرحتها الإسلام في عالم الكون الذي يشكل قراءة واعية للذين يحسنون التأمل ويجدون الملاحظة المتبصرة، بما المنطلق السليم لرسم معالم البيئة الفكرية لاحقاً.

بـ 1- في الآيات التي ترسم العلاقة الاجتماعية وتعطيها هويتها:

1- (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٍ كُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَّا رَبُّكُمْ فَإِنَّمَا قُوَّتُمْ فَإِنَّمَا قُوَّتُمْ (المؤمنون/ 52).

2- (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَزْسَابٌ بَيْنَ ذَهْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَنْسَاءَ لُونَ) (المؤمنون/ 101).

الغاء التمايز، ومصادرة حسابات الإقليمية والقومية، وإظهار الوجود الإنساني الواد المتمثل بالواحد، هو من المعالم التي تساهم في صياغة مفاهيم البيئة الفكرية لدى الإنسان المسلم.. وهي معالم مضيئة بالفهم الصحيح، ومشروقة بالمعاني الإنسانية، ومتعبدة للواحد القهار جبار السماوات والأرض. وبهذا اللون السامي يتعدد إطار آخر من إطار البيئة الفكرية، ويتبعه معلمون من معالمها وخطوطها الرئيسية...

فالوجود الإنساني واحد، ورسالته واحدة، وعبادته واحدة، فإذا نشأ الفرد المسلم على هذه المفاهيم السامية، فهذا يعني أنَّه يمتلك الفكر السليم، والعواطف السليمة، والسلوك الصحيح، وهذه جميعها تشكل معالم البيئة في الجوانب الفكرية. أما السلوك الصحيح فهو من معالم البيئة الاجتماعية الصالحة.

تـ 1- الآيات التي ترسم معالم السلوك الفردي في مستوياته المختلفة:

ـ (وَإِذْ قَاتَلَ لُقْمَانُ لَبُنْدَهُ وَهُوَ يَعْرِظُهُ يَا بُنْدَيْ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/ 13).

ـ (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَدَكَ لِلْنَّاسِ وَلَا تَهْمَشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحَّاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (لقمان/ 18).

(وَقُلْ لِلّٰهِ مُؤْمِنٰيْنَ يَغْفُضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَأْتِ فَطُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) (النور / 30).

(وَقُلْ لِلّٰهِ مُؤْمِنٰيْنَ يَغْضُضُونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَأْتِ فَطُونَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبَدِّلُنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا طَهَرَ مِنْهُمْ...) (النور / 31).

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَزْصَابُ وَالْأَرْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَالِ الشَّيْطَانِ...) (المائدة / 90).

(وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّ يَمَنِي صَغِيرًا) (الإسراء / 24).

(فَلَذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَنْتَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) (الشورى / 15).

وتكتشف أمامنا المعالم الجديدة، والخطوط العامة التي تسهم في صيانة البيئة الفكرية، أو تسهم في تشكيل معالمها الأساسية على النحو التالي:

- ممارسة الشرك، تؤدي إلى ممارسة الطلم الاجتماعي بالضرورة، لأنها خروج عن القانون الكوني، وأي خروج على القانون الكوني، إنما هو خروج على القانون الاجتماعي في نفس الوقت للتلازم الشديد والترابط الكبير في القوانين الإلهية.

- إن "التعالي، والتكبر، والزهو، إنما هو منشأ المفاسد الاجتماعية التي تؤدي وبالتالي إلى اختلال التوازن الاجتماعي على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب والأمم. ف التربية الإنسان المسلم على الابتعاد، وتجنب هذا السلوك، إنما يحتاج إلى تربية عقلية ونفسية في آن واحد، وهذه التربية هي التي تشكل حجر الأساس في رسم معالم البيئة الفكرية.

- إن "غض" البصر، هو عملية تنظيم رائعة للعلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة في مختلف المستويات، وهي التي تسهم في إضفاء الاحترام المتبادل بين الطرفين، لأن "منشأ العلاقات المنحرفة بين الطرفين، يكون منطلقها من إغفال قيمة وأهمية النظر، باعتباره فعلاً نفسياً وعقلياً شديداً الخطورة بين الطرفين للمواصفات التكوينية بينهما.

وال التربية الإسلامية إذا أخذت بهذه الناحية المهمة والخطرة في تاريخ الإنسانية، إنما تسهم في صياغة مفردة أساسية ومهمة في تكوين البيئة الفكرية الصالحة من خلال المفاهيم الصحيحة الناضجة عن ظاهرة غض البصر وأبعادها الاجتماعية والإنسانية.

- إن "الخمر والميسر، يشكلان ظاهرة كثيرة سبباً للفساد الاجتماعي الذي حل بالأمم والشعوب. واهتمام التربية الإسلامية بهذا الجانب هو اهتمام إنساني حضاري لصالح الأمة جميراً، وتنمية الأفكار الصالحة عن هذه الطاهرة تشكل بعدها آخر من أبعاد وخطوط البيئة الفكرية للإنسان المسلم.

- ثم "توطيد الأواصر الإنسانية لا يتخذ شكلاً حقيقة" ما لم توطد أصوات الأبوة والبنوة توطيداً حيوياً فعلياً من خلال إحلال الاهتمام بهما، أي بالأبوين من الأمور العبادية التي لا يجوز التfirيط بها.. وممارسة هذا اللون من السلوك الذي اعتبره القرآن عبادة هو عملية تنمية للمفاهيم والأفكار الإنسانية التي تشكل خريطة الأفكار لدى الإنسان المسلم وبالتالي ترسم معالم جديدة للبيئة الفكرية.

- ولعل من أشد الاهتمامات الحرفيّة على لون المحافظة على لون فكري سليم، وبيئة صالحة في أفكارها، هو الإن Sheldon للدعوة الإسلامية، والاستفادة في طريقها كما أمر الله. وبذلك تنمو الأفكار والمفاهيم في ظل هذا الإن Sheldon المطلق، وتلك الاستفادة، فلا يعود هناك مجال للأهواء الباطلة، والأفكار المنحرفة، وهو صمام أمان تضعه الآيات القرآنية لأجواء التربية الإسلامية في اتجاهاتها الفكرية والسياسية والاجتماعية.

- ولعل الرسول (ص) هو الآخر يساهم في تبيان المعالم والخطوط العامة للبيئة الفكرية في الإسلام عندما يؤكد لنا على الأبعاد التالية من خلال أحاديثه الشريفة:

1- إنّ إِنْ يَعْبُدُ بِالْعِلْمِ وَالْوَعْيِ وَالْمَعْرِفَةِ وَلَيْسَ بِدُونِهِما .

بالعلم يُطاعُ إِنْ وَيُعْبَدُ . . وبالعلم يعرف إِنْ ويوحّد، وبه توصّلُ الارحام ويعرفُ الحالُ والحرامُ [3].

2- إنّ الخوف المطلق يجب أن يكون للملائكة فقط ولا مطْلَقٌ سُوى إِنْ طُوبى لمن شغلهُ خوف إِنْ عن خَوْفِ النّاسِ [4].

3- ليست مواصفات الجمال في الأشكال، الجمالُ في اللسان [5].

4- وإن أفضل شيء في عبادة المؤمن هو الأخلاق، أفضلُكُمْ إِيماناً أحسدُكُمْ أخلاقاً [6].

5- إنّ مداراةَ النّاسِ عَلَيْهِمْ من العلوم التي تُوازي عَلَيْهِمْ تبليغُ الرسالة أمرت بمداراة النّاسِ كما أُمِرْتُ بتبليغ الرسالة [7].

6- ومن أهم الأعمال العبادية ترك الشر تركُ الشَّرِّ صدقة [8].

7- وإن إرضاء السلطان على حسابِ مرضاةِ إِنْ إِنْ حِرَافٌ خطيرٌ .

مَنْ ارْضَى سُلْطَانَاً بِمَا يُسْخِطُ إِنْ خَرَجَ مِنْ دِينِ إِنْ [9].

فعندما نضع هذه التعاليم نصب أعيننا ونحو نعيش الصراع ضد طواغيت الأرض، لابدّ لنا من أن نجعل لنا منهاجاً تربوياً يساهم في تكوين المناخات الإسلامية الصالحة التي تكون في مجتمعها بيئه إسلامية واعية صالحة ل التربية الفرد المسلم والأُمّة المسلمة، وبذلك تكون قد ساهمنا في وضع اللبيات الأولى لمسار إسلامي متضاد أصبح العالم البشري بامسا الحاجة إليه، ولابدّ لنا إذا أردنا أن نشرع في تأسيس بيئه فكرية صالحة من أن نكتشف الخطوط العامة التي طرحها القرآن الكريم لا على سبيل تكوين الإنسان المتدين فقط وإنما على أساس تكوين المناخات الصالحة التي يعطرها الإسلام بما هي عليه المترفة والمتقدمة في علاقتها بالنفس الإنسانية، وبذلك نضمن مستقبلاً تكوين البيئة الفكرية، كما ساهمت دعوة رسول إِنْ (ص) في تكوين البيئة الإسلامية في صدر الإسلام فتخرج منها أبو ذر وعمار والمقداد ومالك وغيرهم .. وهذه مهمة حضارية ستظل أمانة في عنق المخلصين من أبناء الأُمّة الإسلامية ومثقفيهم وعلمائهم ومفكريهم وإِنْ نسأل أن يأخذ بأيدينا لما فيه السداد ونصرة دينه.

الهوامش:

[1] - فلسفتنا، ص399، الشهيد الإمام المصدر.

[2] - تحف العقول، ص27.

[3] - تحف العقول، ص27.

[4] - تحف العقول، ص28.

[5] - تحف العقول، ص33.

[6] - تحف العقول، ص37.

[7] - تحف العقول، ص40.

[8] - تحف العقول، ص46.

[9] - تحف العقول، ص46.

المصدر: مجلة التوحيد